الملاحق

ملحق رقم ١

نقدّم فيما يلى بعض الفقرات من كتاب «غاية المواليد» تعريفاً لآراء الشاعر فى مسألة الذكور والإناث . وهذه الفقرات التى اخترناها قد كتبها ردًّا على اعتراض المعترضين ضدّ السيّدة الحرّة الملكة أن الإناث لايستحققن الرتبة الحجيّة التى هى أعلى المراتب فى الدعوة .

غاية المواليد ص ٢١ ـ ٢٥

نقول إن القمص البشرية الجسمانية لا قول بها ولا عمل عليها ولا رجوع[١] فى انبساط فائدة إليها. بل القول على ما هو ظاهر بها والاستدلال عليه أنه ذكر أو[٢] أنثى من غير جهتها . وذلك ما نجده من أفعاله ويتبين لنا من خلاله . وكما أنا لا نجعل الدليل كلّ باطل ظاهراً فى غير هذه القضية ، كذلك لا نجعل القميص البشرى دليلا لظاهر به . بل الدليل عليه كما قدمنا ما يظهر من أفعاله .

فبذلك يقع الاستدلال عليه لا بالقميص[٣] الجسمانى الذى هو ظاهر به . هذا أصل وضعناه وجعلناه أساساً يبنى عليه ويرجع إليه .

فأما ما يعتقده أهل الرأى القائلون[٤] بتبديل القمُص البشرية وتكرير الأنفس المتصلة بأنوار الهدى فيها وترديدها كرة بعد أخرى . وأن الإناث من القمص الجسمانية لا تظهر بأحدها نفس متصلة من الهدى بسبب إلا لقصور[٥] منها ونقص فيها سابق أوجب[٦] ذلك . فإن ذلك يختل من طرق عدّة نذكرها ونبينها

---

(١) فى الأصل : برجوع .
(٢) فى الأصل : و .
(٣) فى الأصل : بالقمص .
(٤) فى الأصل : القائلين .
(٥) فى الأصل : إلا القصور .
(٦) فى الأصل : سابقة أوجبت .

ونحتج فى ذلك بدلائل العقول إن شاء الله .

أما القول على تكرير الأنفس الموجودة فى دائرة[١] الهدى الحالة بالحرم الذى من دخله كان آمناً ، وترديدها بالأجسام وسجنها فى الأرحام . فإن فساده واضح بيّن[٢]. إذ فى ذلك إحالة عدل الله سبحانه . وفى إحالة عدله إيجاب جوره . ففى إيجاب جوره نفى الحكمة عنه. وفى نفى الحكمة عنه كونه جاهلا . والجاهل لا يكون ربًّا سبحان الله وتعالى عن ذلك علوًّا كبيراً. وهذا هو الكفر نعوذ بالله ممن يدين الله به ويراه . والدليل على صحّة ما ذكرناه أنا نجد هذه القضية قد جمعت بين ولىّ وعدوّ[٣] لوجودنا لهما جمعاً ظاهرين بهذه الأجسام الناشئة فى الأرحام المغتذية بدم الحيض التى هى كما قال أمير المؤمنين : أوّلها نطفة مذرة وآخرها جيفة قذرة . وهى فيما بينهما وعاء عذرة[٤]. فأين الفرق بين رتبة الولىّ ورتبة العدوّ ؟ وأين طريق العدل ههنا ؟ بل هذا بالجور أشبه . وما فضل العبادة والمعرفة على من جهل ؟ وصدق هذا [هو] الجور المحض . وعلى هذا الفصل كلام يمنعنا عن إيضاحه أنا لم نقصد له بل قصدنا إفساد قول من يقول بهذا القول .

إنا نجد من هو ظاهر بقميص الإناث من هو فى أعلى الرتب وأشرفها كالزهراء البتول سلالة الرسول صلوات الله عليهما ، وكفاطمة ابنة أسد وخديجة ابنة خويلد... وغيرهنّ من ذوات الرتب الشريفة التى تعلو وتشرف عن أن يناها كثير من ذوى الرتب[٥] العالية فى العلم ممن هو ظاهر بقمص الذكور . ونجد أيضاً بالعكس من هو ظاهر بقمص الإناث وهو أسفل سافلين من رتب الاستحالة .....
..... والقميص واحد لا خلاف[٦] فيه . أو يقول إن تلك

---

(١) فى الأصل : دائر .

(٢) فى الأصل : يتبين .

(٣) فى الأصل : والعدو .

(٤) جاء فى إخوان الصفاء « أوله نطفة قذرة وآخره جيفة منتنة وما بين الحالتين مملوء عذرة » ج ٣ ص ٤٩ ولم ينسب إلى أمير المؤمنين .

(٥) فى الأصل : الرتبة .

(٦) فى الأصل : خلف .

الصورة الشريفة العالية اللطيفة استحقّت ما استحق هؤلاء الخبائث حتى جمع بينهن من طريق الاستحقاق . نعوذ بالله من هذا[١] الاعتقاد المردى . وإذ انتفى[٢] ذلك ولم يثبت فقد فسد القول على ما ادّعوه من ظهور الأنفس المتصلة بأسباب الهدى بهذه القمص المؤنثة لقصور رتبها ونقص صورها وسوابقها الموجبة لذلك عندهم.

إن الذكر والأنثى من القمص البشرية لا يعرب عن حقيقته ولا يهدى إلى طريقته . بل المعرب والهادى [هو] الظاهر بها . وهذا منها أعنى القمص البشرية الجسمانية التى تكشف لنا حقيقة باطنة حتى يقع عليه[٣] الحكم بأنه ذكر أو أنثى . هو[٤] ما يظهر عنه من الأفعال فى الطاعات والقبول وما يميز فيه ذلك ويظهر عنه من أفعال الخير التى هى الدليل على رسوخ ذلك عنده وانتقاشه به .

فإن ظهر عنه خير لا شر فيه وطاعة لا معصية معها وولاية لا مكابرة بعدها وقبول لا يمازجه ردّ ينجع فيه آثاره وتشعشع منه وقع العلم بأنه قد رسخ عنده ما ألقى إليه وقبله وأثمر منه . وإن كان بخلاف ذلك وقع بأنه بضدّ ما علمه الأول موازنة ومطابقة . ومن هذه الطريق يتبين المؤمن الولىّ من الجاحد الغوى . والاستدلال على من ظهرت عنه خصال الخير على أنه ذكر أو أنثى لا يكون إلا بعد أن يحصل أولا فى حيز هذه الدائرة . فإذا حصل[٥] فى حيزها عرف من طريق ما يكون منه اجتماع هذه الخلال وافتراقها . و [إذا] اجتمعت فيه كان أولى باسم الذكور ولو كان ظاهراً بقمص الإناث .

وهذا قول لا يدفع برهانه إذ الذكر أكمل من الأنثى فى التأويل من قبل الصورة والإفادة والاستفادة . فإذا كان الظاهر بقمص الإناث قد أحرز جميع الخلال المحمودة فقد خرج من دائرة الاستفادة ولم يبق مستفيداً لشىء وصار بمنزلة الذكور

---

(١) فى الأصل : هذه .
(٢) فى الأصل : إن انتفى .
(٣) فى الأصل : على .
(٤) فى الأصل : وهو .
(٥) فى الأصل : قد حصل .

ولو لم يظهر عنه نسل . وإذا كان الظاهر بقمص الذكو غير محرز لجميعها فهو أبداً مستفيد بمنزلة الإناث لكونه غير خارج من دائرة الاستفادة التى أهلها إناث، على أن القمص التى تذكرونها هى غير ما سبقت إليه أوهامهم . والإناث والذكور لا يكون[1] من قبل الأجسام التى هى القمص عندهم بل من قبل الإفادة والاستفادة فقط .

---

(١) فى الأصل : من يكون .

ملحق رقم ٢

نقدّم فيما يلى تلخيصاً لرسالة النفس ليكون أحسن شرح للقصيدتين فى النفس على لسان الشاعر نفسه .

التلخيص لرسالة النفس

قال السلطان الخطاب قصيدتين فى النفس ، ونرى من هاتين القصيدتين مقدرته الشعرية فى نظم المسائل الفلسفية والكلامية الدقيقة بالقريض . ومع هذا وجد الشاعر أن النظم غير كاف لإبانة حالة النفس والمسائل المتعلّقة بها . فألف رسالة فى هذا الموضوع وبين الغرض المقصود من تأليفها فى صدر الرسالة وهو :

أولا : إيراد معنى الخبر الصادر الوارد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربّه » .

ثانياً : حلّ عقد المشكلات من المشكلات الواردة فى الأبيات بالإبانة عن :

١ — ذات النفس .

٢ — السبب الموجب لظهورها بالموضوع الذى ظهرت به وتدرّجت فى درجة ورتبة حتى انتهت منه إلى القامة الألفية المعرب عنها بالكمال الأول .

٣ — السبب الذى من أجله ملكت ما دونها .

٤ — وجودها بالكمال الثانى الذى هو زبدة الغرض لإنشاء الخلقة .

يقول الخطاب فى الخبر المنقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله : « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه[1] » يقول إنما أراد به صلى الله عليه وسلم حضّ المسترشدين على معرفة أنفسهم التى هى سلّم لهم إلى معرفة ربهم . لأن من لم يعرف الخلقة لم يعرف الخالق . ومعرفة الربّ لازمة لكلّ ذى لبّ وهى حقيقة العبادة التى أمر بها سبحانه

(١) يقول الداعى الذؤيب بن موسى الوادعى فى بداية رسالة النفس : « قال النبى صلى الله عليه وسلم أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه . وأجهلكم لنفسه أجهلكم لربه . لأن من جهل نفسه فهو بغيرها أجهل وإلى طريق الباطل أميل » .

ومن أجلها خلق الخلق وبعث الرسل وأنزل الكتب وألّف الشرائع . قال سبحانه : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون »[١] « إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »[٢] ثم قال عزّ وجلّ : « هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ »[٣] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «من جهل شيئاً عاداه» . وقال الحكيم : الجاهل عدوّ لنفسه فكيف يكون صديقاً لغيره ؟ وقال أيضاً : لا سبيل إلى معرفة الربّ إلا بعد معرفة النفس . فإذاً معرفة النفس أول ما يجب أن يبتدئ به من طلب معرفة ربه سبحانه[٤] .

ذات النفس

وبعد هذا التمهيد يبتدئ الخطاب قوله أولا فى ذات النفس حيث يقول : إن قضية العدل وميزان الحكمة يوجب أن توجد الموجودات جميعاً فى بدء وجودها إبداعاً وجوداً واحداً محضاً لا تغاير فى ذاته ولا تفاضل ولا تفاوت . إن التغاير يقتضى الاختلاف بدليل أن الغير مخالف لغيره ، وذلك لا يكون إلا عن عجز من موجده لغرض قصده . ومُحال أن يكون ذلك . إذ تلك صفة المخلوق العاجز القاصر ، وذلك باطل نسبته إلى المبدع الحقّ . ولا يمكن صدور أول الموجودات متغايرة عن ذات واحدة أوجدتها . وهذه الدلائل جميعاً تبطل التغاير وإذا بطل التغاير بطل أيضاً التفاضل والتفاوت ، إذ ذلك لا يستحقّ إلا بسعى . ومحال وجود السعى قبل وجود الساعى ، إذ السعى صفة الساعى . وهذا القول فى عالم الإبداع مؤدّ إلى النفى والتعطيل والإهمال ، نعوذ بالله من ذلك .

فإذا بطلت الوجوه الثلاثة من التغاير والتفاضل والتفاوت ، فقد وقع الإقرار

---

(١) الذاريات ٥١/ ٥٦ .
(٢) فاطر ٣٥/ ٢٨ .
(٣) الزمر ٣٩/ ٩ .
(٤) إن افتتاح جميع العلوم هو فى معرفة الإنسان نفسه — إخوان الصفاء ج ٢ ص ٤٦٢ وراجع الرسالة السادسة والعشرين « فى قول الحكماء إن الإنسان عالم صغير » المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٥٦ .

ضرورياً بوجود الموجودات فى بدء وجودها وجوداً واحداً محضاً لا تغاير فى ذاته ولا تفاضل باستحقاق ولا باتفاق . إن النفس من ذلك الإبداع وذاتها ذاته عن طريق الحياة الموجودة إبداعاً فى غاية التمام والكمال والعزّة والجلالة والقدرة ، لا فرق بين شىء من جميع الموجودات إبداعاً فى شىء من هذه الصفات كلها فى بدء الوجود ، بل هى جميعاً فى درجة التساوى [١] .

السبب الموجب لظهور النفس بالموضوع وتدرّجها فى درجة ورتبة حتى انتهت منه إلى القامة الألفية المعرب عنها بالكمال الأول .

إن الموجودات لما أُسِّسَتْ من لَيْس مبدعة عقولا تامة على جهة الإبداع وجوداً واحداً محضاً كما سبق ذكرها . وقع الأمر فى الدعوة لعالم الإبداع إلى الإقرار لمبدعه بالعبودية والاعتراف له بالألوهية والربوبية والإذعان والخضوع والطاعة . وكان وقوع هذا الأمر فى الدعوة بعقل من عالم الإبداع الموجود عقولا إبداعية . وكان ذلك العقل فى غاية العجز والحيرة عن تصوّر الغيب الداعى به . وكان هو أسبق السابقين إلى الإقرار بالغيب . فاختصّه الغيب وخصّه دون نظرائه وذويه بالاستحقاق الذى استحقه . فصار لا مساوى له ولا نظير ولا مماثل ولا معادل فى عالم الإبداع [٢] .

فأجابت الدعوة العقول المكنى عنها « بحظيرة القدس » وكان السابق من هذه بعد سبق الأول يسمى « انبعاثاً » لا فرق بينه وبين من تقدّم عليه فى الإجابة إلا بكونه ذا رتبة . فكان ما بعد هذه الرتبة هى عقول مترتبة على قدر الإجابة من قرب وبعد . وكان المتخلف منها عن الإجابة والإقرار هو عالم الهيولى الساقط بتخلفه ، الهابط عن عالى شرفه قابلا الكثافة والتشكيل [٣] . وسمّى الخطاب هذه

(١) انظر السور الثالث : فى القلم الذى هو الموجود الأول . راحة العقل ص ٥٧ . جاء فى إخوان الصفا ج ٣ ص ١٨٧ : إن أول شىء اخترعه الله جل ثناؤه وأوجده جوهر بسيط روحانى فى غاية التمام والكمال والفضل ، فيه صور جميع الأشياء يسمى العقل الفعال .

(٢) انظر المشرع الأول من السور الرابع ، راحة العقل ص ٩٥ .

(٣) راجع ما جاء فى الفصل الثامن من رسالة جامعة الجامعة ص ٨٠ .

العقول « حجباً » وهى أدنى العقول درجة وهى التى تولت نقش ما ظهر من عالم الهيولى بالكمال الأول . ومن اتبعها واهتدى بها خرج من العدم إلى الوجود الحقيقى ونال درجة الكمال الثانى ٥

وأن عالم الهيولى متفاوت فى الإجابة ومتفاضل فى درجاته . وذلك أن منه ما هو آلة فعالة مؤثّرة وهى الأفلاك الدوّارة والكواكب السيارة . ومنه ما هو منفعل قابل للتأثير وهى الأركان وما تولد عنها من المواليد . وكانت حركة الأفلاك عللا لمسير الكواكب ، ومسيرها علة لاتصال أنوارها ونظر بعضها إلى بعض بالشكل المحمود والشكل المذموم . وكان اتصال أنوار بعضها ببعض بالشكل المحمود علة للكون ، وبالشكل المذموم علة للفساد . والغرض من جميع ذلك إنما هو ظهور المواليد وخروج ما يخرج منها بالقامة الألفية التى هى آخر رتب الموضوع المعرب عنها بالكمال الأول ، لتؤثر فيه العقول وتنقشه النقش السوىّ الذى به ارتقاؤه عن مهبطه وصعوده عن مسقطه بإنالتها إياه درجة كماله الثانى[1] . وذلك هو زبدة الغرض من الخلقة .

السبب الذى من أجله ملكت ما دونها

قد سمّينا النفس نفساً فى العموم على مجاز القول . وقد شرحنا أن أصل الوجود لا تغاير فيه ولا تفاضل بينه ، وأنه ذات واحدة . ولا يقع الوهم على شىء مما هو واقع تحت الوهم والحسّ من عالم الهيولى ، ولا يدركه إلا وأصله الحياة . والحياة فيه خميرة تبعد وتقرب من المركز على قدر صفائه وكدره . وإذا كان ذلك كذلك ، فإن جميع ما يقع تحت الوهم والحسّ حىّ على الإطلاق ، إلا أن الحياة فيه مترتبة متفاضلة الرتب متفاوتة الدرج ، فمنه ما هى فيه بالقوة ، ومنه ما هى فيه بالفعل .

وأما الذى هى فيه بالقوّة ، فعالم الطبيعة بأسره من أفلاكه وكواكبه وأركانه ومواليده ، إلا أنها على كونها فيه بالقوّة فى بعض منه أظهر من بعض ، كالمعادن

---

(١) اطلب الرسالة السابعة عشرة « فى بيان الكون والفساد » إخوان الصفا ج ٢ ص ٥٢ .

من أجناس المواليد التى هى أول درج الموضوع ، وأن فيها قوّة قابلة للتأثير ، ولها العلم الأول الذى به اجتمعت أجزاؤها من الأعراض الفلكية الطارئة من الحرّ والبرد واليبس فى وقت واللين فى آخر ، حتى ترتبت بقبول التأثير رتباً لا يحصى عديدها . فما كان منها أكثر قبولا كان أشرف قدراً وأسنى قيمة مما كان أقل قبولا . وكلها معدن منعقد من التراب والماء . فإنما ذلك التفاضل حسب نظر الآلات المحكمة من حركات الأفلاك ومسير الكواكب واتصالاتها فى وقت الانعقاد[١] .

وكذلك ما عليه جنس النبات . فإن فيه قوّة قابلة للنموّ والزيادة متوجهة فى طلب الغذاء والمادة الحافظة عليها بقاء موضوعها . إن فى هذه القوّة ما هو أفضل من ذلك وهو توجهها إلى كل جزء من الشجر قسطه من الغذاء وحصّته بقسمة العدل . وهذه الدرجة أفضل من الأولى وأحق بصفة الحىّ . ثم إنها فى النخيل أظهر لكثرة تشبهه بالجنس الحساس ، الذى درجته أفضل من درجة النبات لكونه مضاهياً له فى اللقاح والنتاج ، ولكونه إذا قطع رأس كلّ شىء منه تلف سائره وتلاشى على ماعليه الجنس الحساس ناطقه وصامته . إن الحياة فى هذا الجنس أظهر وأقوى منها فى الجنس الأول . ولذلك ملكه وعلا عنه لكونه قد ارتقى رتبة ، لأن الأشرف مالك الأدون ملك رتبة رتبة لا ملك ذات ذاتاً[٢] .

وكذلك ما عليه حال الحيوان الحساس فإن الحياة فى هذا الجنس أظهر وأقوى منها فى الجنسين الأولين لتفرقته بين الشرّ والخير ، وتصرّفه فى طلب المنافع وهربه من المضار ، على ما هو فيه من الفطنة والحركة الاختيارية والالتذاذ وغير ذلك . ولأجل ذلك ملك النبات بشرفه وعلوّ رتبته عليه ، فتحكّم فيه وتغذى به وقدر عليه ملك رتبة رتبة لا ملك ذات ذاتاً[٣] .

ثم ما عليه حال الشخص الألفى هو الإنسان الذى هو آخر درج الموضوع ،

---

(١) اطلب الرسالة العشرين « فى ماهية الطبيعة »والرسالة الثامنة عشرة فى « بيان تكوين المعادن »، إخوان الصفاء ج ٢ ص ١٣٢ ، ٨٧ وكذلك المشرع الثالث والرابع من السور السابع ، راحة العقل .

(٢) انظر الرسالة الحادية والعشرين فى «أجناس النبات» ،إخوان الصفاء ج ٢ ص ١٥٠ ، والمشرع الخامس والسادس من السور السابع ، راحة العقل .

(٣) راجع الرسالة الثالثة والعشرين « فى تركيب الجسد » ، إخوان الصفاء ج٢ ص ٣٧٨ ، ج٣ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ ، والمشرع التاسع وبعده فى السور السابع من راحة العقل .

وغاية ما دونه من المواليد ، وزبدة الغرض من الخلقة . ومن أجله أيدت العقول الآلات الفعالة وأعطتها من القدرة على الفعل التى أخرجت بها المواليد وبلغتها درجة الكمال الأول . فإن الحياة فى الإنسان أظهر وأقوى منها فى جميع ما تقدّم عليه فى الظهور من المواليد . ولذلك شرف على جميع ما دونه وملكها وتصرّف فيها تصرّف المالك وانتفع بها وتغذّى بها[1] .

ويعود الخطاب إلى إبانة معنى النفس حيث يقول : إن هذه الحياة التى ذكرناها يطلق عليها اسم « النفس » على طريق المجاز فى المواليد فقط ، كما يقال نفس المعادن ونفس النبات ونفس الحيوان مجازاً لا حقيقة . فإنه لا يستحق أن يطلق عليه اسم النفس منها إلا ما ظهر بالقامة الألفية أى فى حدّ الكمال الأول ، ودخل دائرة الوجود تمسكاً بالحقيقة . ولا يقال على من لم يوجد فى دائرة الوجود نفس ، بل يقال عليه حياة طبيعية تكون وتفسد ، تنشأ وتتلاشى غير مفارقة موضوعها بالعموم .

وكل حياة ظهرت بآخر درج الموضوع وبالقامة الألفية فى حدّ الكمال الأول ، موجودة لطاعتها واتصالها بالحدود أى العقول واستقامتها صاعدة متوجهة إلى الكمال الثانى . فصارت متهيئة لفراق الموضوع المكنى عليه بالتراكيب . وقد يكون أن الحياة ظهرت ظهور الأولى ووجدت كما وجدت الأولى ، ثم نكصت مرتدّة على أعقابها يقال عليها أيضاً نفس ، وهى المذمومة فى كتاب الله . والفرق بينهما أن هذه النفس المستقيمة مثابة محمودة صاعدة ، وهذه معذبة مذمومة هابطة . وأما النفس أو الحياة الظاهرة التى لم تبلغ إلى آخر درج الموضوع ، فهى لا وجود لها وجوداً حقيقيّاً ، وإنما هى سائرة إلى حدّ الكمال الأول . فهذه الموجودة المقهقرة عن الكمال الأول ، وتلك السائرة إلى الكمال الأول هى غير مفارقة للموضوع المادّى التركيبى[2] .

---

(١) انظر الرسالة الثانية والعشرين « فى كيفية تكوين الحيوانات وأصنافها » ، إخوان الصفاء ج ٢ ص ١٧٨ والمشرع السابع والثامن من السور السابع فى راحة العقل .

(٢) انظر إخوان الصفاء ج ٣ ص ٥ ، ٢١٣ ، والمشرع الحادى عشر ، والثانى عشر والثالث عشر من السور السابع فى راحة العقل .

ويقول الخطاب فى القامة الألفية : إن النطفة الظاهرة عنها الموضوع حية ، بدليل كونها قابلة لما يطرأ عليها من التغير والتنقل من حال إلى حال . فالحياة فيها كامنة بالقوة على ما عليه حال رتبة الحياة المعدنية ، ليس لها شيء أكثر من الانعقاد . فتنتقل إلى رتبة النماء متحرّكة حركة نباتية فى مركزها لطلب الغذاء من دم الحيض الذى هو مادّة لها . ثم تنتقل عن تلك الدرجة حين تبرز إلى سطح الفضاء وتباشر نسيم الهواء . وهى حينئذ حياة حسية بهيمية إلا أنها ترتبت ، وإذ هى سائرة إلى الكمال الأول . وإن رزقت كافلا يكفلها تبلغ مبلغ عمّل الطبيعة وهو بلوغ الاحتلام . ثم تتولى العقول تدبيرها واستخلاصها وإخراجها من العدم إلى الوجود . فإن قبلت فيوض التأييد واعتصمت به ، سعدت وفازت بالقامة الألفية وقيل عنها إنها صاعدة من الموضوع . وإن قبلت ثم تقهقرت ، قيل عنها إنها هابطة ، بمعنى أنها هبطت عن الكمال إلى ضدّه . وإن لم تقبل فى الأصل تأثير العقول ولم يكن للعقول عليها إقبال ، لم يقل عنها أى القولين فى الصعود والهبوط .

وجودها بالكمال الثانى

يرجع المؤلّف فى هذا الفصل الأخير إلى الخبر الصادر عن النبى صلى الله عليه وسلم الذى سبق ذكره فى بداية الرسالة ويقول : إن الإشارة فى هذا الخبر متوجهة إلى موجود لا إلى معدوم ، وإلى حاضر لا إلى غائب . وإذا كانت الأشياء على وجهين كثيف ولطيف ، كان الكثيف عالم الجسم واللطيف عالم الروح الذى هو أشرف القسمين المخصوص على معرفته . إذ معرفته سلم إلى معرفة ربه سبحانه . والجسم غير سابق إلى الوهم ، لأنه إضافة إلى النفس وليست النفس إضافة إليه .

ثم إن المشار إليه فى الخبر هو الحىّ ، حياة الحقيقة لا حياة المجاز . والحياة على وجهين فى عالم الأجسام. وذلك أنها فى بعض أكمل منها فى بعض وأظهر وأقوى ، وإن كانت فى جميعها بالقوّة وهى مجاز لا حقيقة . ثم إنها فى عالم اللطافة على وجهين . أما فى ذوى الصورة القاصرة ، فإنها مجاز خارجة إلى الحقيقة . وهى حقيقة

بالإضافة إلى حياة عالم الأجسام إليها . وأما فى ذوى الصورة البالغة غايات المبادئ ، فإنها حقيقة قائمة بالفعل والحياة التى فى ذوى الصورة القاصرة مجاز بالإضافة إلى هذه الحياة إلا أنها سائرة إلى الحقيقة .

وإن لذلك الحىّ صفات وإضافات من عقل ونفس وروح وجسم . وجميع هذه الإضافات مردودة إليه إذ هى تب له . فإذا كان فى حدّ المعاهدة والاسترشاد فهو نفس . وإذا خرج إلى حدّ التصوّر وعقل المادّة التائيدية فهو عقل . فإذا بلغ حدّ الولادة والإفادة فهو روح . وعلى ذلك المثال ترتيب الدرج الدينية من غير أن يكون العقل والنفس والروح أشياء متجزّئات بعضها عن بعض . وإنما ذلك هو الحىّ وهو صفات رتبه ودرجه . فهو يسمى فى كلّ رتبة يرتقى إليها باسم مخصوص ، على ما عليه حال الرجل يرتفع درجة بعد درجة من كاتب إلى وزير وهو الرجل بعينه . وأن المستفيد منهم فى حال الاستفادة نفس ، ومفيده عقل له . فإذا عرف ذاته كانت معرفته بها سلّماً إلى معرفة مفيده .

والعلم دون المعرفة لكون المعرفة أعلى درجة من العلم . وشتان بين من يعلم شيئاً وبين من يعرفه . فالمعرفة أبلغ وأخصّ . وإن كلّ عارف عالم لكون العلم درجة إلى المعرفة . وليس كلّ عالم عارفاً ، مع أن جميع هذه المعارف المذكورة متعلقة بمعرفة النفس . لأن العارف إذا عرف نفسه وعرف شرفها وما تستحق من الوصف ، عرف حينئذ مَن نقشه ومن خلقه . فنزّهه وسبّحه وقدّسه وعبده حقّ عبادته من الطريق التى أمر بالعبادة .

وسمّيت النفس نفساً لنفاسة قدرها وكونها شريفة الحال . وهذه صفة يختصّ بها الموجود لا المعدوم . فكل من وجد فى دائرة الوجود استحقّ أن يسمّى فى بدء وجوده نفساً . ثم إنها ما دامت فى دائرة الاستفادة ، فهى نفس ومفيدها عقل وهو ربها . فإذا عرفت ذاتها عرفت ربها . وهو مربيها حتى تكون نفساً لمن فوقها ، وعقلا لمن دونها . فلا تزال ترتقى درجة درجة وتعلو رتبة رتبة بما تقدّم من صالح عملها وسعيها ، حتى تستكمل جميع الدرج والرتب ، وتقوم عقلا بالفعل ، مجرّداً عن الموادّ ، مفارقاً للرتب سارياً عن دونها ، متصفاً بالصفات الإبداعية التى وجد متصفاً بها فى حال إبداعه مبدعاً مؤيّساً من ليس .